

الفصل الثامن

متفرقات

obeykandi.com

## هتلر: مؤسس الدولة الصهيونية؟

الحضارة الغربية، حضارة داروينية تمجد القوة وتجعلها هي الآلية الوحيدة لحسم الصراعات، كما تجعل مصلحتها معياراً وحيداً أوحده للحكم على الظواهر. وهي حضارة إمبريالية عنصرية تتمركز حول نفسها ولا ترى الآخر إلا باعتباره مادة استعمالية، وهذا هو جوهر كل من النازية والصهيونية. فإذا كانت النازية قد حوّلت اليهود وغيرهم إلى مادة استعمالية، فإن الصهاينة قد فعلوا ذلك مع الفلسطينيين. وإذا كان النازيون قد فرضوا رؤيتهم على الواقع بقوة السلاح، فإن الصهاينة لم يتوانوا عن استخدام نفس المنهج.

ويبدو أن الحضارة الغربية غير قادرة على مواجهة نفسها وعلى مواجهة هذه الحقيقة، ولذا فهم لا يكفون عن الثرثرة عن حقوق الإنسان وحقوق المرأة وحقوق الأطفال وحقوق القطط والكلاب.. إلخ. أما الإبادة النازية ليهود أوروبا، فبدلاً من رؤيتها على أنها ظاهرة متكررة في الحضارة الغربية الحديثة (التي بدأت بإبادة السكان الأصليين في أمريكا الشمالية واستمرت حتى العصر الحديث في فيتنام والبوسنة والشيحان، مروراً بإبادة السكان الأصليين في أستراليا ونيوزيلندا وإبادة الملايين في إفريقيا). نقول بدلاً من أن تدرك الحضارة الغربية الإبادة النازية باعتبارها ظاهرة متكررة، فإنها تصنّفها على أنها حدثٌ فريدٌ، ثم تستخدمها كستار من دخان لتخبئة ما يدور من مذابح في عالمنا.

لكن الأعمال الأدبية - في كثير من الأحيان - لا تعكس الواقع، وإنما تصوّره تصويراً نقدياً. فأدب القرن التاسع عشر (بما في ذلك الأدب

الرومانسى) كُتِبَ إبَّان الثورة الصناعية وسيادة المفاهيم النفعية المادية، ومع هذا وضع الأدباء نُصب أعينهم الهجوم على وحشية الثورة الصناعية ولا إنسانية المفاهيم النفعية المادية.

ونفس القول ينطبق على الرواية الخيالية التى كتبها عالم اللغة البريطانى اليهودى جورج ستانير (بعنوان نقل أ. هـ. إلى سان كريستوبال)، فهى رواية تاريخية خيالية. تدور حول حدث خيالى: العُثور على هتلر حياً فى إحدى غابات الأمازون، والقبض عليه من قِبَل بعض اليهود الذين اقتفوا أثره، والذين قرروا محاكمته. والمحاكمة دون شك خيالية، ولكنها مع هذا تصل إلى كبد الحقيقة، إذ يبيِّن هتلر العلاقة الوثيقة بين النازية والصهيونية، مشيراً إلى أحد المفاهيم العنصرية الأساسية التى تبناها النازيون، أى مفهوم التفاوت بين الأعراق والجنس الأرقى، مخاطباً اليهود الذين يقومون بمحاكمته:

«يجب أن تفهموا أننى لم أختَر شيئاً. لم يكن الجنس المتفوق من بنات أحلام أدولف هتلر، الذى كان يحلم باستعباد الشعوب الأدنى. أكاذيب. أكاذيب.. لقد تعلمت قوتكم الخفية هناك. قوة تعاليمكم الخفية. تعاليمكم أنتم. شعب مختار. شعب اختاره الله لنفسه. العرق الوحيد المختار على وجه الأرض.. وجعله الإله فريداً دون البشر».

ثم يقتبس هتلر من العهد القديم، ويشير خصوصاً إلى بطولات يوشع ابن نون، وهو بطل قومى / دينى يتواتر ذكره فى الكتابات الصهيونية، ويوصف بأنه حرق المدن وخرّبها كليةً وأباد سكانها، نساءً ورجالاً وأطفالاً، حتى الحيوانات، هى الأخرى أبيدت بحد السيف. ولذا فهتلر يرى أن كتاب اليهود المقدس تفوح منه رائحة الدم. ثم يُضيف قائلاً: «لقد تعلمت أن أى شعب لا بد أن يكون مختاراً كى يُحقق مصيره، وألا يكون هناك أى شعب آخر فى نفس مرتبته: الأمة الحقيقية سردفين، جسد واحد

خلقه الله بإرادته، وخلق دمها الطاهر، خلقها سر الإرادة والاختيار. أن تهزم أرضها الموعودة وتستبعد كل من يقف في طريقها. وأن تعلن نفسها خالدة أبدية».

والمصطلح النازي الذي يستخدمه هتلر يُذكر المرء بالمصطلح الصهيوني، فكلاهما يأخذ المفاهيم الدينية ثم يقوم بعلمنتها وتجنيد الجماهير من خلالها، وبذلك تحوّل مفهوم الشعب المختار إلى مفهوم الشعب العضوي (فولك) الذي يرتبط أعضاؤه بأرضهم و ببعضهم البعض برباط عضوي أزلي، هو «روح الشعب» أو «المصير الأزلي» أو «إله الشعب» إلى آخر هذه المطلقات والغيبيات العلمانية. ثم يستطرد هتلر قائلاً: «لم تكن عنصريتي سوى تقليد هزلي لعنصريتكم أنتم، تقليد هزيل. ماذا يكون الرايخ الذي سيدوم ألف عام بالقياس إلى صهيون الأبدية؟».

إن هتلر بمرافعته هذه يبين أن فكرة الشعب المختار عرقياً، هي فكرة غربية قد يكون لها جذور يهودية، ولكنها أصبحت جزءاً من التراث الغربي. وقد قال هتلر في إحدى خطبه (الحقيقية) إنه لا يوجد سوى شعب مختار واحد، وهو الشعب الألماني. وقد بيّن أحد أهم الزعماء والمنظرين النازيين، ألفريد وزنبرج، أثناء محاكمته في نورمبرج أن نظرية التفاوت بين الأعراق هي جزء لا يتجزأ من الفكر الغربي. فأشار إلى أنه تعرف لأول مرة على مصطلح «الإنسان الأعلى» (السوبرمان) في كتاب عن الاستعماري الإنجليزي كتشنر، وأن مصطلح «الجنس المتفوق» أو «الجنس السيد» مأخوذ من كتابات العالم الأمريكي الأنثروبولوجي ماديسون جرانت والعالم الفرنسي لابوج، وأن رؤيته العرقية هي نتيجة أربعمائة عام من البحوث العلمية الغربية. ومن المعروف تاريخياً أن هتلر تشرب كثيراً من آرائه من الدراسات الإمبريالية/ العنصرية التي انتشرت في أوروبا آنذاك كالميكروب لتبرير المشروع الإمبريالي الغربي.

ولكن الأهم من هذا أن هتلر فى مرافعته الخيالية وضع الإبادة النازية فى سياق الحضارة الغربية باعتبارها حضارة إبادية لا تتردد فى إزالة الآخر من طريقها (فهو من الناحية العرقية يشغل مكانة أدنى، ولذا لا يستحق الحياة): «أنا لم أخلق القبح، ولم أكن أسوأ القبحاء. بل إن الأمر أبعد ما يكون عن ذلك. كم عدد التعساء الصغار الذين قتلهم أصدقاؤكم (المستعمرون) البلجيك فى الغابات - إما بشكل مباشر أو بتركهم يموتون جوعاً أو من مرض للزهري حينما اغتصبوا الكونغو؟ أجيئو علىّ يا سادة. أم يجب علىّ أن أذكركم؟ عشرون مليوناً. هذه النزهة الخلوية كانت قد بدأت وأنا بعد فى المهد صبياء؟ فى لعبة الأرقام السوداء لست أسوأ اللاعبين». ثم يؤكد هتلر أن ستالين ارتكب هو الآخر جرائم تفوق جرائمه هو كيفاً وعدداً.

وما لم يذكره هتلر فى دفاعه عن نفسه فى المحاكمة الخيالية وقائع الإبادة المختلفة فى التاريخ الغربى الحديث. ولكننا نعرف أنه فى أحاديثه الخاصة (الحقيقية) كثيراً ما كان يبدي إعجابه بالمستوطنين الأمريكيين البيض وطريقة «معالجتهم» لقضية الهنود الحمر. وقد صرح هتلر فى إحدى خطبه أن الحرب التى تخوضها ألمانيا ضد عناصر المقاومة فى شرق أوروبا لا تختلف كثيراً عن كفاح البيض فى أمريكا الشمالية ضد الهنود الحمر. ومن هنا كان هتلر يشير إلى أوروبا الشرقية باعتبارها «أرضاً عذراء» أو «صحراء مهجورة»، تماماً كما كان يتحدث الصهاينة عن «أرض بلا شعب» وعن فلسطين باعتبارها «صحراء ومستنقعات».

بعد أن وضع هتلر الإبادة النازية ليهود أوروبا فى سياقها الحضارى الغربى العريض، يضعها فى سياق ألمانى يهودى: رفض اليهود الاندماجيين للنازية وترحيب الصهاينة بها - التعاون بين الصهاينة والنازيين - الصهيونية فى علاقتها النظرية والفعلية مع النازية! فكشفت

عن كثير من حقائق التعاون بين النازيين والصهاينة. يقول هتلر في مرافعته الخيالية في نفس الرواية المشار إليها.

«هذا الكتاب الغريب المسمى الدولة اليهودية (كتاب هرتزل والإنجيل الصهيوني) قرأته بعناية بالغة. إن كلماته جاءت من أعماق بسمارك (والعسكرية البروسية)، اللغة، الأفكار وحتى النبرة نفسها. إنى أتفق معكم أنه كتاب ذكى صاغ الصهيونية على شاكلة الأمة الألمانية الجديدة. ولكن من الذى خلق إسرائيل فى واقع الأمر، هرتزل أم أنا؟ انظروا إلى السؤال دون تحيز؟ هل كان من الممكن أن تصبح فلسطين إسرائيل.. دون مذبحة الإبادة التى قمت بها. إن مذبحتى هى التى أعطتكم شجاعة الظلم التى جعلتكم تطردون العربى من منزله وحقله لأنه كان يقف فى طريقكم. هذا هو الذى جعلكم قادرين على تحمل معرفة أن هؤلاء الذين قمتم بطردهم، يجلسون يكاد يأكلهم العفن فى معسكرات اللاجئين، على بُعد أقل من عشرة أميال [ من وطنهم ]. مدفونين أحياء فى بؤسهم».

ولم يذكر الروائى، على لسان هتلر، معاهدة الميعفراه بين النازيين والصهاينة التى أنقذت الجيب الصهيونى من الهلاك، إذ إنه كان يعانى من توقف الهجرة الاستيطانية ومن تدفق رؤوس الأموال، الأمر الذى تكفل به النازيون (نظير أن يقوم الصهاينة بكسر طرق المقاطعة اليهودية للبضائع الألمانية). ولهذا قال أحد المعلقين، إذا كان هرتزل هو ماركس الصهيونية (أى منظرها)، فإن هتلر هو لينينها (أى من حول النظرية إلى واقع سياسى).



## النازيون الجدد

نشرت جريدة الاتحاد فى عددها الصادر فى ٥ أبريل ٢٠٠١ تصريحات الشيخ عبد الله بن زايد آل نهيان، وزير الإعلام والثقافة، بخصوص الوضع

فى الأراضى المحتلة، فقد انتقد بشدة الدعم غير المحدود الذى تقدمه الولايات المتحدة لإسرائيل، مما يساعدها على الاستمرار فى عملية القمع والإرهاب المستمرة التى تمارسها ضد الفلسطينيين. وقد وصف سموه الصهاينة بالنازيين الجدد، وهو وصف - فى تصورى - جريئ ودقيق. فنقط التشابه بين النازيين والصهاينة كثيرة.

ومع هذا أحاط الصهاينة الإبادة النازية لليهود أوربا (التي يطلقون عليها الهورلوكوست) بالقداسة. كما أنهم يحاولون احتكار دور الضحية لليهود وحدهم دون غيرهم من الجماعات أو الأقليات أو الشعوب. ولهذا يرفض الصهاينة والمدافعون عن الموقف الصهيونى أية محاولة لرؤية الإبادة النازية باعتبارها تعبيراً عن نمط تاريخى عام يتجاوز الحالة النازية والحالة اليهودية. كما يرفض الصهاينة تماماً محاولة مقارنة ما حدث لليهود على يد النازيين بما حدث للغجر أو البولنديين، على سبيل المثال، أو بما حدث لسكان أمريكا الأصليين على يد الإنسان الأبيض، أو ما يحدث للفلسطينيين على أيديهم. ولذا كُمت أفواه البولنديين الذين عانوا من ويلات الحكم النازى أكثر من أية جماعة إنسانية أخرى. كما أن عدد ما فقدوا من الضحايا يفوق عدد الضحايا اليهود.

لكن المفارقة الكبرى أن كثيراً من الصهاينة يستخدمون اصطلاح «نازى» فى كثير من السياقات، فدعاة السلام من الصهاينة يستخدمون اصطلاح «نازى» للإشارة لدعاة الحرب من المستوطنين، بل إن بعضهم يشير إلى جميع المستوطنين فى الضفة الغربية باعتبارهم نازيين. ويقوم اليهود الشرقيون (السفارد) بالإشارة إلى اليهود الغربيين بأنهم «أشكى نازى» أى أشكنازى. ونشرت جريدة ידיעות أحرונوت فى عددها الصادر فى ٣ مايو ٢٠٠٠ مقالاً أشار إلى أن أحد طلبة قسم علم

النفس بجامعة تل أبيب يُدعى آدم جوفرى كتب مقالاً شبّه اليهود المتدينين بالنازيين.

وكثير من الصهاينة الذين يسمون بالمعتدلين يشبّه الصهاينة المتطرفين بأنهم نازيون، فما يكل إيتان (عضو الكنيست الإسرائيلي) أشار إلى وجود تشابه كبير بين القوانين التي يقترح مائير كاهانا تطبيقها على العرب في الدولة الصهيونية وقوانين نورمبرج النازية التي طبّقت على اليهود.

ومؤخراً (ملحق هآرتس ٢٨ أبريل ٢٠١٠) وصف الصحفي أمنون دنكنر أحد نشطاء حركة كاخ (إيتامار بن جبين) بأنه نازي صغير. فقام هذا الأخير برفع دعوة قذف ضد دنكنر الذي طلب من البروفسور موشيه تسيرمان (المتخصص في التاريخ الألماني) أن يقوم بإعداد وثيقة تعقد مقارنة شاملة بين أيديولوجية جماعة كاخ (التي أسسها كاهانا) والأيديولوجية النازية. وقد قام البروفسور بالفعل بإعداد الوثيقة وأورد فيها نصاً منشوراً وزعته جماعة كاخ في أعقاب مذبحه صابرا وشاتيلا ورد فيه ما يلي: «حربنا ليست حرباً ضد منظمة التحرير الفلسطينية فقط ولكنها ضد كل الشعب الفلسطيني. وهي حرب مقدسة تقتضى الإبادة لكل هذا الشعب!». وقد أشار البروفسور إلى أن حركة كاهانا تستخدم عبارات مثل «الشياطين» و «الصراصير» و «الحشرات» و «الأفاعي» و «السرطانات» و «الطفيليين» للإشارة إلى العرب، وهي عبارات استخدم النازيون بعضها للإشارة لليهود.

وقد بيّن البروفسور أن كلاً من النازيين والمتطرفين اليهود يدعون إلى طرد الأجانب «وتطهير البلاد منهم» كما يدعون إلى تحريم الزواج المختلط. أما «الأجانب» (العرب في فلسطين واليهود في ألمانيا) الذين يبقون داخل حدود الدولة (النازية أو الصهيونية) فلن يُسمح لهم بالإقامة في الأحياء النقية عنصرياً!

إن كل التفاصيل والوقائع التي أوردناها تهدف إلى توضيح أن ثمة إدراكاً صهيونياً لوجود جوانب نازية في بعض الأيديولوجيات الصهيونية مثل أيديولوجية اليهود الأرثوذكس المتطرفين وأيديولوجية جماعة كاخ. وهذا يعنى أنه لا داعى على الإطلاق أن تحصر كلمة «نازى» للإشارة للنازيين الألمان الذين قاموا بإبادة اليهود، وإنما يمكن استخدامها للإشارة لكل من يفكر بطريقة نازية ويسلك سلوكاً نازياً، ألمانياً كان أم غير ألماني.

انطلاقاً من هذا يمكن أن نشير للأيديولوجية الصهيونية ككل باعتبارها أيديولوجية عرقية نازية، فقانون العودة الصهيونى (الذى يعتبره بن جوريون العمود الفقري للمستوطن الصهيونى) يفتح أبواب إسرائيل على مصراعيه لأى يهودى يود الاستيطان فى أرض فلسطين المحتلة، وينكر هذا الحق الإنسانى الهسيط على أى فلسطينى اضطر إلى ترك وطنه تحت تهديد السلاح منذ بضع سنوات. كل هذا بهدف تأسيس دولة يهودية خالصة لا تختلف كثيراً فى منطلقاتها عن الدولة النازية.

وقد قارن كثير من الكُتّاب اليهود والإسرائيليين بين قانون العودة النازية. فعلى سبيل المثال، أعرب الأستاذ الإسرائيلى د. كونفيتمس - خلال النقاش الذى دار قبل الموافقة على قانون العودة - عن مخاوفه من احتمال مقارنة هذا القانون بالقوانين النازية، ما دام يُجسد مبدأ التمييز بين الأفراد على أساس دينى أو عرقى.

وبعد صدور هذا القانون، حذرت جريدة جويش نيوزلتر، فى عددها الصادر فى ١٢ مايو ١٩٥٢، من أن هذا القانون يعيد إلى الذاكرة النظرية العنصرية الخطيرة القائلة بأن الفرد الألمانى يتمتع بمزايا جنسيته، بغض النظر عن المكان الذى يوجد فيه.

وفى مقارنة عقدها روفن جراس بين قانون العودة والقوانين النازية، بيّن أن قانون العودة يمنح امتيازات الهجرة لأى يهودى بموجب تعريف قوانين

نورمبرج: أى أن يكون جده يهودياً. أى أن يكون حاييم كوهين، الذى كان قاضياً بالمحكمة العليا فى إسرائيل أن «من سخرية الأقدار المريعة أن تُستخدم نفس الأطروحات البيولوجية والعنصرية التى رُوِّج لها النازيون والتى أوحى لهم بقوانين نورمبرج الشائنة، كأساس لتعريف الوضع اليهودى داخل دولة إسرائيل». وهناك، على الأقل، حالة واحدة معروفة، قامت فيها السلطات الدينية فى إسرائيل بالرجوع إلى السجلات النازية، للتأكد من الهوية العنصرية الدينية الإثنية لأحد المواطنين الإسرائيليين.

وإلى جانب قانون العودة هناك عشرات من الممارسات الصهيونية الأخرى ذات الطابع العنصرى الفاقع، الذى يبرر استخدام كلمة «نازى». خذ على سبيل المثال قوانين الصندوق القومى اليهودى التى تنص على أن هذا الصندوق يقدم الدعم لليهود ولليهود وحدهم، كما أن أحد بنوده تقرر أنه لا يمكن تأجير أرض يمتلكها الشعب اليهودى لغير اليهود، مما يعنى أن ٩٠٪ من أرض فلسطين المحتلة لا يمكن لغير اليهود (أى العرب) أن يعملوا فيها أو فى المستوطنات الزراعية المقامة عليها أو حتى أن يستأجروا شقة فى عمارة مقامة على هذه الأرض.

ألا يبيّن هذا أن الصهيونية تستند إلى رؤية نازية تترجم نفسها إلى ممارسات صهيونية، وأن سمو الشيخ عبد الله بن زايد حين وصف الصهاينة بأنهم نازيون جدد قد أصاب عين الحقيقة؟



### تاريخ أول دولة يهودية فى العصر الحديث: كيف تم القضاء عليها

من الحقائق التى تغيب عن الكثيرين ارتباط أعضاء الجماعات اليهودية فى الغرب بالمشروع الاستعماري الاستيطاني الغربى. فوجودهم فى فلسطين هو تعبير عن هذا الارتباط وليس عن الارتباط الأزلى بين اليهود وأرض

الميعاد. وتوجد عدة تجارب استيطانية قام بها أعضاء الجماعات اليهودية في جزر أمريكا اللاتينية مرتبطة بما كان يُسمى «المثلث اللعين» إذ كانت السفن الأوربية تحمل البضائع، كالأسلحة والبارود والمشروبات الروحية الرخيصة والحلى، من أوروبا إلى الساحل الإفريقي فتنفريها، ثم تحمل العبيد الذين كانوا يُنقلون إلى مزارع السكر في الولايات المتحدة وجزر الكاريبي وبياعون هناك، وكانت السفن الفارغة تحمل المنتوجات، الاستوائية كالسكر والنيلة والصبغ والقهوة إلى أوروبا، وهكذا. وكان يوجد مثلث آخر لم يكتسب أهمية إلا في منتصف القرن الثامن عشر. فكان تجار نيو إنجلاند يرسلون شراب الروم الكحولي إلى إفريقيا ويبادلونه بالعبيد ويبحرون إلى جزر الهند الغربية حيث كانوا يبيعون العبيد ويشترون عسل قصب السكر اللازم لصناعة الروم ثم يتجهون لبلادهم. وقد كانت مزارع السكر ذات أهمية كبرى بالنسبة لاقتصاد هذه الجيوب الاستيطانية. فكان هناك الجيب الاستيطاني في كوراساو وهي إحدى جزر الهند الغربية الهولندية وتقع على مقربة من ساحل فنزويلا. وتعود أهمية كوراساو إلى أنها من التجارب الأولى للجماعات اليهودية الاستيطانية (١٦٥٠) وإلى أنها تندرج في إطار الاستعمار الاستيطاني الغربي الذي بدأ نشاطه في العالم الجديد واستمر في التوسع إلى أن وصل إلى آخر حلقاته في فلسطين في العصر الحديث.

ومن التجارب الاستيطانية الأخرى تجربة الاستيطان في كايان، وهي جزيرة على ساحل أمريكا الجنوبية، توجد بها مدينة تحمل نفس الاسم. وقد حاول بعض الفرستسيين الاستيطان فيها وفشلوا، ثم وصل بعض الهولنديون وأعضاء الجماعة اليهودية (المارانو)، فوجدوا الأرض المزروعة والقلعة المسلحة التي تركها المستوطنون وراءهم، وحصلوا على ميثاق من شركة الهند الغربية الهولندية عام ١٦٥٦ يسمح لهم

بالاستيطان. ووصل عدد أكبر من اليهود من البرازيل بعد عدة أعوام ومنحتهم الشركة مزايا وحرقات عديدة منها أن تكون أية أرض يضعون يدهم عليها ملكية خالصة لهم. وقد انضم لهم المزيد من أعضاء الجماعات اليهودية عام ١٦٦٠ من ليجهورن. وازدهرت المستوطنة حتى عام ١٦٦٤، حينما استولى عليها الفرنسيون ورحل اليهود إلى سورينام وجامايكا.

ولكن أهم التجارب الاستيطانية الأولى (من منظور التطورات اللاحقة) تجربة الاستيطان في سورينام التي شهدت ظهور أول جيب يهودى استيطاني ابهءاء من عام ١٦٣٩. (سورينام جمهورية مستقلة، كانت تدعى فى الماضى «جيانا الهولندية» حيث كانت تابعة لهولندا. وهى تقع، فى أمريكا الجنوبية، بين جيانا البريطانية والبرازيل وجيانا الفرنسية، ويحدها من الشمال المحيط الأطلنطى).

وكان من أهم مراكز اليهود فى سورينام مستوطنة يودين سافانا، ومعناها «سافانا اليهود»، التى تأسست عام ١٦٧٠ والتى كانت تقع على بعد عشرة أميال من باراماريبو أكبر مدن سورينام فى بريزدنتس أيلاند «جزيرة بريزدنت أو الرئيس». كانت الجماعة الاستيطانية اليهودية فى هذه الجزيرة شبه مستقلة، إذ أسس أعضاؤها عددًا من المزارع هناك وسط الغابات. وقد استخدموا العبيد السود فى شق الطرق وإزالة الأعشاب وفى العمل فى المزارع، كما أسسوا مدينة محاطة بالطرق الجديدة. وقد بلغ عدد سكانها عشرة آلاف نسمة عام ١٧١٩، معظمهم من العبيد المجلوبين من إفريقيا.

إلا أن أعدادًا كبيرة منهم كانت تهرب من المستوطنين إلى الغابات وتتحد مع السكان الأصليين من الهنود الذين اقتلَعوا من أرضهم، ثم تقوم

بغارات على المزارع. وكان أصحاب المزارع يستجلبون المزيد من العبيد ليحلوا محل الهاربين. ولكن هؤلاء كانوا ينضمون بدورهم إلى الهاربين في الغابات. وقد تزايد عدد الفارين وأصبحوا يشكلون تهديداً حقيقياً للمستوطنين اليهود البيض الذين صمدوا بعض الوقت ضد العبيد الثائرين، فكُونوا ميليشيا عسكرية وجددوا الحملات ضد الثوار. ولكن الإرهاق من الحرب ومن الجهد المبذول لإحباط ثورات العبيد ابتداءً من ١٦٩٢، وانتشار مرض الملاريا، أديا في نهاية الأمر إلى انتصار السود عليهم عام ١٧٧٤. ثم شب حريق فيما تبقى، فلم يبق من آثار اليهود سوى شواهد قبور عليها كتابات بالعبرية.

وثمة نقاط تشابه عديدة بين تجربة المستوطنين اليهود في سافانا اليهود والمستوطنين الصهاينة في فلسطين، من بينها أن كلا من المستوطنين اليهود في فلسطين وسافانا اليهود تم توطينهم خارج أوروبا تحت رعاية أكثر من دولة أوروبية واحدة: إنجلترا ثم هولندا في حالة سورينام، وإنجلترا ثم الولايات المتحدة في حالة فلسطين، وأنه تم توطينهم ليقوموا على خدمة المصالح الإمبريالية الغربية. كما أن كلتا الجماعتين الاستيطانيتين كانتا منقسمتين وبحدة إلى سفارد وأشكناز يتصارعون فيما بينهم.

ولكن أهم السمات من منظور اللحظة الحالية أن كلتا الجماعتين كانتا مرفوضتين من قبل أعضاء المجتمع المُستهدف استغلاله: العبيد السود المُستجلبين والسكان المحليين في سورينام، والفلسطينيين العرب في فلسطين. وقد انتصر السود على سافانا اليهود، أما في فلسطين فإن المعركة مازالت دائرة بين الفلسطينيين وجنود الاحتلال الإسرائيلي. وإن كان من الممكن القول بأن انتفاضة الأقصى قد قوّضت تماماً أحلام الصهاينة

بإمكانية الحفاظ على الأمر الواقع : مستوطنون اغتصبوا الأرض، وسكان أصليون مغلوبون على أمرهم (خاصةً لأنها جاءت في أعقاب انسحاب الإسرائيليين المنزّل من جنوب لبنان). وفي تصوري أن تقويض أحلام المستوطنين هو مؤشر على بداية النهاية، فالجيوب الاستيطانية عادةً مبنية على أساطير عنصرية يصدقها المغتصب إلى أن يفيق حين يسمع زمجرة المستضعفين، وحين تصل أحجارهم إلى رأسه ويدخل رصاصهم صدره وقلبه.



### الحاخام القائد:

البحاخام عوفاديا يوسف شخصية غريبة الأطوار تعبر عن تناقضات التجمع الصهيوني. فمنذ عدة أعوام أصدر فتوى دينية شهيرة حول تأييد الانسحاب الإسرائيلي من أراض عربية محتلة حقًا للدماء وصوتًا للأرواح اليهودية. وقد استدعى الحاخام مفهومًا دينيًا يهوديًا هو «بيكواح نيفيش» أي «فداء النفس». يعنى أن النفس اليهودية أغلى من الأرض (اليهودية) ولا يصح التضحية بها.

ولكن هذا الحاخام نفسه صرح في موعظته الأسبوعية في عيد الفصح العبرى هذا العام أن «الإله يجب أن يدمر العرب» وطلب من أتباعه أن يكرروا وراءه عبارة «صب غضبك على الأغيار» كما طلب من الإله «أن يرد الصاع صاعين إلى العرب وأن يقطع نسلهم ويبيدهم ويذلوهم ويمحو أثرهم». وفي مناسبة أخرى صرح بأن العرب «أنجاس وأفاع» وأن «الإله يندم كل يوم على أنه خلق ذرية إسماعيل».

وقد حاول بعض المتحدثين الرسميين الإسرائيليين التخفيف من حدة وقع هذا التصريحات العنصرية. فقالوا إن الحاخام يقصد «المخربين» وليس

العرب على وجه العموم. وكما قال الحاخام ميخائيل ملكيثور (من حزب ميماد الدينى «المعتدل» والمؤتلف مع حزب العمل فى قائمة إسرائيل واجب) «ثمة وصية فى الدين اليهودى تقول لنا بعدم إدارة الخد الأيسر لمن يصفعنا على الخد الأيمن. ومن هنا فليس المطلوب منا أن نكون إنسانيين مع الذين يريدون المس بنا تنفيذًا للوصية القائلة: الذى يأتى لقتلك بكر بقتله».

ولا يهمنى فى هذا السياق اتهام الحاخام يوسف بالعنصرية أو تبرئته من التهمة أو التخفيف منها، وإنما يهمنى أن نفسر سر هذا التحول، حتى نفهم حركات التجمع الصهيونى. ولقهم هذا لابد وأن نضع اللعنات التى صبها عوفاديا يوسف على العرب فى سياق أوسع من اللعنات الأخرى!

قد أعلن الحاخام فى فبراير عام ١٩٩٩ أن كان قضاة المحكمة العليا فى إسرائيل نجسون يرتكبون الفاحشة (معاريف ١٩ مارس ٢٠٠٠). كما صب لعناته على النساء العلمانيات اللاتى لا يمارسن شعائر الطهارة وبالتالى يلدن أطفالاً نجسين. وفى عام ١٩٩٧ صرح بأن «الرجل يجب ألا يسير بين امرأتين أو حمارين أو جملين. لماذا؟ لأن الناس لا يعرفون التوراة أى التفات، وكل من يسير بالقرب منهم يصبح مثلهن». وفى ٣ مارس ٢٠٠٠ فى إحدى مواعظه قال الحاخام إن يوسى ساريد (وهو من أهم شخصيات اليسار العلمانى) ملعون، تمامًا مثل كل أعداء اليهود وأن الإله سيغتثه من جذوره. وقد أدلى الحاخام بتصريحه هذا قبل عيد البوريم حيث يتم شفق تمثال هامان، الوزير الفارسى، الذى حاول أن يبيد اليهود.

ولم تسلم المؤسسة الدينية الإشكنازية من هجمات الحاخام عوفاديا يوسف، فحينما سُئل عن أقرب العقائد الدينية إلى اليهودية قال حركة

حبد، وهي حركة دينية إشكنازية يهودية أرثوذكسية، وهو بتعليقه هذا ينكر عليها صفة اليهودية.

الهجوم إذن ليس ضد العرب وحدهم. وإنما ضد حزمة من المؤسسات والعقائد والجماعات البشرية، فما هي دوافع الحاخام؟ ابتداءً يجب أن نشير إلى أن الحقيقة الأساسية في حياة الحاخام عوفاديا يوسف هي أنه مؤسس حزب شاس وزعيمه الروحي، وهو حزب ديني/ قومي سفاردي. والحاخام من مواليد العراق (١٩٢٠)، وكان رئيس المحكمة الدينية اليهودي في القاهرة (١٩٤٧ - ١٩٥٠)، والحاخام السفاردي الرئيسي لمدينة تل أبيب (١٩٤٥ - ١٩٧٢)، والحاخام السفاردي الرئيسي في إسرائيل (١٩٧٣ - ١٩٨٣).

ويؤوغ نجمة هو انعكاس لعدم تجانس التجمع الصهيوني، فهذا التجمع منقسم على نفسه عدة انقسامات: فهناك الانقسام الأكبر وهو الانقسام الديني العلماني، ولكن هناك انقسام آخر لا يقل عنه أهمية هو الانقسام الغربي الشرقي. والجدول التالي الخاص بالتقسيم على أساس ديني يبين مدى تداخل الأمور في إسرائيل:

أرثوذكس متطرفون (حاردي)	٣,٩%
متدينون (داتي)	١١,٠%
تقليدي (ماسورتى)	٢٦,٨%
علماني يحتفظ ببعض التقاليد (حيلوني حاميكاييم ماسورت)	٢٣,٣%
علماني (حيلوني)	٣٠,٣%
معادي للدين	٤,٤%

ونرجو ملاحظة أن الماسورتى (التقليدى) ليس متديناً بالمعنى المعروف، وإنما هو من يرى ضرورة الحفاظ على التقاليد، وليس بالضرورة من يؤمن بالعميقة.

وتزداد الصورة تركيباً إن صنفنا أعضاء التجمع الصهيونى على أساس أصولهم العرقية. وإلى جانب هذه الانقسامات والصراعات يوجد الصراع الأكبر، وهو الصراع العربى الإسرائيلى. ورغم تأثيره العميق على الصراعات الأخرى إلا أن هذا ليس هو موضوعنا فى هذا المقال.

وقد أسست الدولة الصهيونية مجموعة من يهود شرق أوروبا الذين فقدوا إيمانهم الدينى وأصبحوا ملاحدة كانوا يرون أن الصهيونية إنما هى ثورة على العميقة اليهودية. فالرواد الصهاينة أو الآباء الصهاينة كانوا لا يكتفون أى حب أو احترام للعقائد والتقاليد اليهودية، وكانوا يرون أن دولتهم العبرية تشكل نهاية للشخصية اليهودية التقليدية وبداية للشخصية العبرية التى تصاغ على نمط الشخصية القومية العلمانية فى الغرب. وعلى هذا الأساس تم تأسيس الدولة الصهيونية، ولكن الدولة الصهيونية مع هذا ادعت أنها «دولة يهودية» تستمد شرعيتها من كونها يهودية. ولذا مع دخول الفكر العلمانى مرحلة الأزمة على المستوى العالى وعلى مستوى إسرائيل بدأت المؤسسة الدينية فى إسرائيل تطرح نفسها كبديل. فعلت ذلك على استحياء فى بادئ الأمر، ثم مع تصاعد أزمة الصهيونية العلمانية، ازدادت ثقة بنفسها وازدادت نبرتها حدة.

وتطالب المؤسسة الدينية أن تصبح الدولة اليهودية «يهودية» بالمعنى الدينى وليس بالمعنى الإثنى، بمعنى أن يهودية هذه الدولة يجب ألا تكمن فى مجموعة من الرموز القومية الدينية (مثل النشيد القومى وأنواع معينة من الطعام.. إلخ) وإنما يجب أن تتبدى فى مجموعة من الممارسات والشعائر الدينية الحقيقية مثل إقامة شعائر السبت (التي يرى العلمانيون

أنها قاسية للغاية وتحرمهم من عطلة نهاية الأسبوع) واتباع قوانين الكاشروت (أى الطعام المباح شرعاً، وهى كثيرة ومركبة وصعبة).

وتوجد قضايا أخرى عديدة قد نفرد لها مقالاً مستقلاً فى المستقبل. ولكن إلى جانب الصراع الدينى العلمانى. هناك الصراع الصفاردى (الشرقى) الإشكنازى (الغربى). فمن المعروف أن التقاليد السفاردية الدينية (المنهاج السفارى) كان له اليد الطولى فى فلسطين، وكان على الحاخامات الإشكناز أن ينضموا إلى الجماعة الدينية السفاردية التى كان يترأسها ريشون لتسيون (الأول فى صهيون) وهو حاخام سفاردى، كان يختاره المجلس الحاخامى ثم توافق عليه السلطة العثمانية.

ولكن ابتداءً من نهاية القرن التاسع عشر وتزايد النفوذ الغربى بدأت تظهر جماعات إشكنازية مستقلة، تمولها الجماعات اليهودية فى أوروبا وبمساعدة قناصل الدول الغربية، خاصة روسيا القيصرية، التى كانت تبذل قسارى جهودها أن تتدخل فى شئون الدولة العثمانية الداخلية.

وبدأ سلطان الإشكناز يتزايد حتى عام ١٩١١ حينما وافق الحاخام السفاردى بن زيون أوزايل أن يتقاسم السلطة الدينية مع الحاخام يتسحاق كوك. ولكن ما حدث أن الحاخام كوك، وكان صهيونياً حتى النخاع، نجح فى الاستئثار بها تقريباً، حتى سادت التقاليد الإشكنازية، ووجد الحاخام السفاردى نفسه مضطراً للتنازل إلى أن وصل الأمر إلى أن أصبحت الثقافة السفاردية الدينية والشعبية موضع احتقار، وتحت شعار صهر المنفيين حاولت المؤسسة الإشكنازية محو هوية السفارد.

يقود الحاخام عوفاديا يوسف ثورة ضد هذا الوضع بشقيه الدينى والإثنى. فهو يود أن يعيد الأمور إلى ما كانت عليه، فيعيد المنهاج الدينى السفاردى إلى مكان القيادة، ويؤكد الهوية السفاردية. إن الحاخام عوفاديا يوسف يقود صراعاً حضارياً تبدى فى تأسيسه لحزب شاس الذى أخذ

يتعاضم نفوذه فى الخارطة السياسية الإسرائيلية إلى أن حصل على ١٧ مقعداً فى الكنيست فى انتخابات ١٩٩٩، وبذلك أصبح ثالث حزب، ومنافساً قوياً لحزب الليكود على القواعد الشعبية الشرقية التى يركز إليها، والتى حقق من خلالها بيجين ثورته الانتخابية عام ١٩٧٧م، حينما أسقط المؤسسة العمالية وحل محلها.

إن الحاخام عوفاديا يوسف يحاول تأكيد الهوية اليهودية الدينية الإثنية الشرقية، فصراعه الحضارى يتم على المستويين الدينى والإثنى. وهو لم يعد يكتفى بأن يبتز الحكومات الإسرائيلية المتتالية لتمويل نظامه التعليمى أو مؤسساته الاجتماعية إذ نجده يحاول الآن أن يلعب دوراً سياسياً قيادياً بحيث يمكنه المشاركة فى السلطة حتى يمكن إعادة تقسيم الثروة القومية اليهودية.

ويتم التحرك داخل هذا المناخ السياسى العام فى إسرائيل المشبع بالتفكير العنصرى ضد العرب (خاصة بعد تصاعد الانتفاضة) وبالخوف منهم. ولعل تخلى الحاخام عوفاديا يوسف عن موقفه القديم بخصوص «فداء النفس» هو محاولة من جانبه أن يثبت للجمهور الإسرائيلى أن حزبه الشرقى قد تأسرل (أى اكتسب الصبغة الإسرائيلية، أى أصبح إسرائيلياً) تماماً وأنه بالتالى قادر على قيادة الدولة الصهيونية والهجوم على العرب يكسبه قدراً كبيراً من الشرعية.

والله أعلم.